ABES13

**أحاديث الأذكار والأدعية 08 - حديث: مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت**

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فمن الأحاديث العظيمة الواردة في فضل الذكر حديثُ أَبِي مُوسَى الأَشْعَـــرِيِّ قَالَ: قَالَ النَّبيُّ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْـحـَيِّ وَالْـمَيِّتِ» رواه البخاري ومسلم ، ولَفْظُ مُسْلِمٍ : «مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ مَثَلُ الْـحَيِّ وَالْـمَيِّتِ».

إنّ مَثَل الغافل عن ذكر الله مثَلُ الميِّت، وقد تقدّم معنا أنّ الذِّكر هو حياة القلوب حقيقةً، فلا حياة لها بدونه، وحاجتها إليه أعظم من حاجة السّمك إلى الماء؛ فالقلب الذَّاكر هو القلب الحيّ، والقلب الغافل هو القلب الميِّت. ففي هذا التمثيل كما يقول الشوكاني :: «منقبةٌ للذَّاكر جليلةٌ، وفضيلة له نبيلة، وأنّه بما يقع منه من ذكر الله في حياةٍ ذاتيةٍ وروحيّةٍ لما يغشاه من الأنوار، ولما يصل إليه من الأجور، كما أنّ التارك للذِّكر وإن كان في حياةٍ ذاتيةٍ فليس لها اعتبارٌ بل هو شبيهٌ بالأموات» اهـ كلامه: .

لقد جعل النبيُّ الكريمُ في هذا الحديث بيت الذَّاكر بمنزلة بيت الحيّ، وبيت الغافل بمنزلة بيت الميِّت وهو القبر، وفي اللّفظ الأوّل جعل الذّاكر نفسه بمنزلة الحيّ، والغافل بمنزلة الميِّت؛ فتضمّن الحديثُ بمجموع لفظيه: أنّ القلب الذّاكر كالحيِّ في بيوت الأحياء، والقلب الغافل كالميّت في بيوت الأموات، وعلى هذا فإنّ أبدان الغافلين قبورٌ لقلوبهم، وقلوبهم فيها كالأموات في القبور، ولهذا قيل:

**فـنـسـيـان ذكـر الله مـوت قلوبهم وأجـسامهم قبل القبور قبورُ**

**وأرواحهم في وحشةٍ من جسومهم وليس لهم حتى النشور نشورُ**

وقيل أيضا:

**فنسيان ذكـر الله موت قلوبهم وأجسامهم فهي القبور الدوارسُ**

**وأرواحهم في وحشة من حبيبهم ولـكـنـهـا عـند الخبيث أوانسُ**

ولهذا صحّ في الحديث عن نبينا النهيُ عن جعل البيوت قبورًا، أي: لا يصلّى فيها ولا يذكر الله تعالى فيها ، ففي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبي قال: ((اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتّخذوها قبوراً)) ، وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة عن النبي قال: ((لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإنَّ الشيطان يفرُّ من البيت الذي يسمع سورة البقرة تُقرأ فيه)) ، وفي سنن أبي داود وغيره بإسناد حسن من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله : ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلّوا عليَّ فإنّ صلاتكم تبلغني حيث كنتم)).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : في بيان معنى قوله: ((لا تجعلوا بيوتكم قبورًا )): «أي لا تُعطِّلوها عن الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور؛ فأمر بتحري العبادة في البيوت، ونهى عن تحرّيها عند القبور، عكس ما يفعله المشركون من النّصارى ومن تشبّه بهم». اهـ كلامه :.

**ولَمَّا كان القلب بهذه المثابة يوصف بالحياة وضدّها؛ انقسمت القلوب بحسب ذلك إلى ثلاثة أقسام:**

**الأوّل**: القلب السليم؛ وهو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شركٌ بوجهٍ ما، بل قد خلصت عبوديته لله؛ إرادةً ومحبّةً وتوكُّلاً وإنابةً وإخباتًا وخشيةً ورجاءً، وخلُص عملُه لله، فإن أحبَّ أحبَّ في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، ويكون الحاكم عليه في أموره كلّها هو ما جاء به رسول الله ، فلا يتقدّم بين يديه لا بعقيدة ولا قول ولا عمل.

**الثاني**: ضد هذا وهو القلب الميّت الذي لا حياة به؛ فهو لا يعرف ربّه ولا يعبده ولا يمتثل أمره ولا يفعل ما يحبّه ويرضاه، بل هو واقفٌ مع شهواته ولذّاته ولو كان فيها سخطُ ربِّه وغضبُه، فهو متعبِّدٌ لغير الله حبًّا وخوفًا ورجاءً ورضًا وسخطًا وتعظيمًا وذلاًّ، إن أحبَّ أحبَّ لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه، فهو آثَرُ عنده وأحبُّ إليه من رضا ربه ومولاه، فالهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سائقه، والغفلة مركبه.

**الثالث**: قلب له حياة وبه علّة؛ فله مادّتان تُمدُّه هذه مرّة، وهذه تُمدُّه أخرى، وهو لما غلب عليه منهما، ففيه من محبّة الله والإيمان به والإخلاصِ له والتوكّلِ عليه ما هو مادة حياته، وفيه من محبّة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها ومن الحسد والكبر والعجب وحب العُلُوِّ ما هو مادة هلاكه وعَطَبِه.

فالقلب الأوّل حيٌّ مخبتٌ ليِّنٌ، والثاني يابسٌ ميِّت، والثالث مريض فإمّا إلى السلامة أدنى وإمّا إلى العطب أدنى. وعلى هذا فإن القلب لكي تبقى له حياتُهُ وتزول عنه غفلتُهُ وتتم له استقامتُهُ محتاجٌ إلى ما يحفظ عليه قوَّتَه ؛ وهو الإيمان وأوراد الطاعات والمحافظة على ذكر الله، والبعدُ عن كلّ ما يسخطه تبارك وتعالى، ولا سعادة للقلب ولا لذّة ولا نعيم ولا صلاح إلاّ بأن يكون اللهُ وحده إلهه وفاطره ومعبوده وغاية مطلوبه، وأحبّ إليه من كلِّ ما سواه، فبهذا تكون نجاة القلب من الغفلة وسلامته من الهلَكة، وبهذا تسري فيه الحياة، والتوفيق بيد الله وحده.

وحديث أبي موسى الأشعري المتقدم له روايتان -كما تقدم- الأولى تتعلق بالشخص نفسه، والثانية تتعلق بالبيت الذي يسكنه ؛ أخذ بعض العلماء منه فائدة وهي: أن من لا يذكر الله يصبح صدره مقبرة لقلبه، ويكون والحالة إذ قلبه ميت مدفون في صدره، وأن حياة القلوب لا تكون إلا بالذكر، والغفلة عنه موتٌ للقلوب.

وفي الحديث بيان لأهمية الذكر ومكانته بضرب الأمثال، والأمثال يؤتى بها لتوضيح الأمور، وهي تأتي في القرآن والسنة كثيراً ، بل في القرآن - كما يقول ابن القيم- ما يزيد على الأربعين مثل ، والله يقول : وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ [العنكبوت:43] ففي الأمثال نفع عظيم وتقريب للأمور وتوضيحٌ للمسائل. والنبي عليه الصلاة والسلام ضرب في هذا الحديث مثلين : مثَل للذاكر ، ومثَل للغافل ؛ فذكر أن مثل الذاكر مثل الحي ، ومثَل الغافل مثل الميت . وهذا فيه أن حياة القلوب حقيقةً إنما تكون بذكر الله ، فبذكر تحيا القلوب، وبالغفلة عنه تموت .

قال ابن القيم : : «وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر؛ فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراكباً على قلبه، وصدأه بحسب غفلته، وإذا صدِئ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه، فيرى الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل، لأنه لما تراكم عليه الصدأ أظلم؛ فلم تظهر فيه صورة الحقائق كما هي عليه، فإذا تراكم عليه الصدأ واسودَّ وركبه الران فسد تصوره وإدراكه، فلا يقبَل حقاً ولا ينكر باطلاً، وهذا أعظم عقوبات القلب.

وأصل ذلك من الغفلة واتباع الهوى فإنهما يطمسان نور القلب ويُعميان بصره، قال تعالى: {ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطًا}[الكهف:28]، فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل فلينظر؛ هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة وأمْره فرطاً لم يقتدِ به ولم يتبعه فإنه يقوده إلى الهلاك .

ومعنى الفرُط:

* قد فُسر بالتضييع؛ أي أمره الذي يجب أن يلزمه ويقوم به وبه رشده وفلاحه ضائعٌ قد فرط فيه.
* وفُسر بالإسراف؛ أي قد أفرط.
* وفُسر بالإهلاك.
* وفسر بالخلاف للحق.

وكلها أقوال متقاربة، والمقصود: أن الله نهى عن طاعة من جمع هذه الصفات، فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه؛ فإن وجده كذلك فليُبعد منه، وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله واتباع السنة وأمره غير مفروط عليه بل هو حازم في أمره فليستمسك بغرزه، ولا فرق بين الحي والميت إلا بالذكر، فمثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت». اهـ كلام ابن القيم: .

ولهذا ينبغي أن يكون هناك تعاوُن في البيوت على أن تُعمَر بذِكْر الله ، ويُنشَّأ الصِّغار وأهل البيت على العناية بذِكْر الله؛ ولا سيما أذكار الصباح والمساء، فإنَّها أكثر الأذكار وأوسعها ورودًا في السُّنَّة.

ولهذا كان متأكِّدًا علينا أجمعين أن نُعنَى بالأذكار عمومًا، وبأذكار الصباح والمساء على وجه الخصوص، وكذلك أذكار أدبار الصلوات، والأذكار التي تُقال عند النوم؛ فكلُّ ذلك مِمَّا يجدُر بالمسلم في خاصة نفسه وفِيمن يعُول أن يُعني بها عنايةً كبيرة؛ لتكون له حِصنًا حصينًا وحِرْزًا متينًا من الشيطان الرجيم، ولتدبَّ الحياة الحقيقة في البيوت.

فيُستحب له البسملة عند الدخول، وإذا دخل يجتهدُ في الإكثار من ذكر الله في بيته، فإذا عمر البيت بذكر الله دبّت فيه الحياة وهربت منه الشياطين وعُمَر بالخير والصلاح والاستقامة والتعاون والترابط والألفة والمحبة وظهر فيه أنواع البر؛ وصار يتنامى بالخير ويحيا حياة طيبة، بينما إذا كان البيت في غفلةٍ عن ذكر الله يموت وتكثر فيه الصفات الذميمة والأعمال الرديئة، وينشأ فيه التباغض والتشاحن والتحاسد إلى غير ذلك من الصفات الذميمة. فذكر الله حصن البيوت وأمانها وطمأنينتها ومرتكز سعادتها ومدار فلاحها ونجاحها .

وفقنا الله أجمعين لعمارة بيوتنا بذكره وشكره وحُسن عبادته، إنه سبحانه سميع الدعاء وهو أهل الرجاء ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وصلى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .